الفصل السادس عشر

الفلسفة

يبدو أن الفلسفة كانت من المعاني التي استرعت نظر الانسان البدائي مختلطة بالمعرفة إجمالا ، ذلك أنه كان دائب النظر الي الطبيعة ، الى السماء والارض والماء ، راغبا في الوقوف على سر ما يشهد وتعليل حقيقة ما يحس .

وليس ببعيد ولا بعجيب أن يكون رئيس الجماعة أو زعيم القبيلة أو رب الاسرة هو ذاته الكاهن والعالم والطبيب والفيلسوف والعراف والساحر وقائد الجند والشرطة بل الملك. وكلما اقتربنا من عصر التاريخ ، وضح التخصص فى هذه الاعمال وأصبح لكل منها أشخاص ينهضون باعبائها .

وقد اختلف استعمال لفظ «الفلسفة ـ ومعناها حب الحكمة ـ » تبعاً للبلاد والعصور والعلماء . فقد انتقلت فكرة «الفلسفة » نفسها فى اليونان من فكرة المعرفة والثقافة العامة ، أى من أن الفيلسوف هو من يعرف أى شيء أو كل شيء إلي علم معين ، فعند « هيرودوت وثيكيديس » أن فكرة الفلسفة تتبع المعرفة . أما في كتابات « أفلاطون » فهناك فرق بين الرجل الحكيم ومحب الحكمة . وعند « أفلاطون » أن الفيلسوف هو من يدرك أساس الاشياء وحقيقتها على نقيض من لا يعني إلا بالظواهر ومظاهر الحس . فالفلاسفة ، عند أفلاطون ، هم من يستطيعون ادراك الابدى والثابت ومن يحبون كل شيء له وجود حقيقي

وقد ذكر « أرسطو » ، رجل دائرة المعارف التاريخية القديمة ، حدود النظم الفلسفية . وكان « أرسطو » هو منشيء علوم المنطق والاخلاق والذوق والجمال

الفلسفة هي معرفة أسرار الكون العام وادراك نواميس التغيير المستمر فيه وفهم أصل نشأته ونهاية مصيره أو قل هي معرفة الظواهر الطبيعية المختلفة وأسباب نشأتها وتحولها من كون الي فساد ومن فساد الي كون ، والوقوف على ما وراء تلك الظواهر من الازل الي الابد . وشرط هذه المعرفة إنما هو التحرير الفكرى من التقاليد القديمة والاقتداء بالعادات الموروثة والاعتماد علي قوانين الديانات القائمة بحيث يكون هذا المجهود الفلسفى الحكيم راجعاً للعقل البشرى الحر الطليق كما أدركه سقراط وأفلاطون وأرسطو وديكارت وكانت واسبنسر . على أن الفلسفة قد تدرجت في معان واطلاقات كثيرة فى حدود التعريف المتقدم. وكان هذا التدرج في معانيها واطلاقاتها المختلفة تابعا للتدرج فى الموضوعات الرئيسية التى اشتغلت بها ولانتقالها بعنايتها الكبرى من موضوع الي موضوع إلي أن وصلت أخيراً ، وبعد استقلال العلوم عنها ، إلي دائرة بعينها من التفكير ، هي دائرة التفكير فيما أنتجته العلوم الطبيعة حسب مهمة كل واحد منها فى حدود موضوعه وبطريقته الخاصة به في البحث ، بأن تأخذ الفلسفة تلك المجهودات العلمية العامة وتجمعها وتؤلف منها مجتمعة ، معرفة عامة تبحث بها في حدود ما وراء الطبيعة بحثاً يصور للعقل فهم اللانهائية والديمومة من الازل وما فيه الى الابد وما سيصير اليه ، وما بينهما من تعاقب في عالم الحدوث وتغيير مستمر فى ظواهره بحكم الكون والفساد أو الوجود والعدم . وفي تلك الدائرة الخاصة والنقطة العويصة ، وبتلك الطريقة المذكورة تبحث الفلسفة بحثها الفنى الاصطلاحى تاركة الحكمة الادبية الاجتماعية تأخذ طريقها محدودة في الادب العام وفي فنها العامي المعروف بعلم الاخلاق بعد أن كانت في هذا الفن فرعاً من فروع الفلسفة « أو الحكمة الفنية الاصطلاحية » . وباستقلال العلوم عنها استقل أيضاً علم الاخلاق أو الحكمة الاجتماعية بما فيها من مأثور الآداب

نشأت الفلسفة في اليونان في القرن السابع قبل الميلاد . ولئن كانت الامم الشرقية القديمة قد أنتجت مجهوداً حكيما فنياً يذكر فى تاريخ الفلسفة إلا أن هذا المجهود قد ارتبط عند مجموع هاتيك الامم بالدين ولم ينفصل عن دائرته وحدوده . واليونان، وان كانوا قد اتصلوا بهذا المجهود الفلسفى القديم ووقفوا عليه ، وعلى الاخص ما هو مأثور من ذلك عن قدماء المصريين ، غير أنهم مابنوا تفكيرهم الفلسفي علي هذا المجهود الاول المكتنف بسياج الدين بل أهملوا هذا السياج إهمالا تاماً ، ومنحوا العقل البشرى حريته الكاملة ، وابتدأوا يفكرون تفكيرهم الفلسفي بفكر حر طليق من أى تقليد أو عادة أو أى تأثير للدين . ومن أجل هذا كانت الفلسفة بنت الفكر اليوناني الحر ، وهديته ، التى لا تقوم مطلقاً ،الي الانسانية . غير أن وميض الفلسفة قد ظهرعند « لأوتسه» الفيلسوف الصينى الكبير ، وكان هذا الوميض عند لأوتسه المذكور أظهر وأوضح من وميضها . بل أنها ابتدأت به عند « تاليس » الملطي اليونانى المعروف بأبى الفلسفة الاول .

صارت الحكمة الهندية بعد اجتياز الدور الارسطوري الذي نشأت عنه ، وبعد وصولها الى دور مذاهب البراهمة الفلسفية التصوفية ، حكمة دينية لا تقل عن مثيلتها، الحكمة الفلسفية الدينية التى ابتدأت عند اليونان قبل المسيح ، واستمرت نحو ثمانية عشر قرنا الي عهد الفلسفة الحديثة .

وعن الفلسفة الدينية الهندية تفرعت عدة مدارس ومذاهب فلسفية أخرى أساسها الفكر الحر والعقل الطليق ، المذهب المادى الجاحد الذي كان من أثر العقل الحر والفكر الطليق. على أن حرية الفكر الباحث عند الهنود ـ وهى سهلة فى دوائر الجحود ـ لم تقف عند هذا الحد بل انتقلت الى ما هو فى دوائر الايمان الدينى واستبعدت منه النظر فيما وراء الطبيعة ، وكونت لها نظاماً اجتماعياً أو ديناً حراً يعتمد على الفضيلة لا على وحي أو رغبة له مثل الدين البوذي

لهذا كانت الفلسفة اليونانية مشتركة مع الحكمة الهندية مع مذهب لأوتسه الصيني في التفكير الطليق

والفلسفة اليونانية ـ الي هذا ـ تنفرد عن الفلسفة الهندية في أنها، وهي تتفهم في الوجود في ظواهره وأسراره، تعمد الي وضع القواعد الثابتة والنظريات المبرهنة والاحكام المسلمة كأساس راسخ للبحث الكلي في المسائل العامة والنتائج الشاملة، فتكونت، بهذه الطريقة، الفلسفة الحرة اليونانية ومعها مبادىء علمية ما كانت معروفة من قبل بل وضعها العقل اليوناني وضعاً. ولقد نمت هذه المبادىء العلمية شيئاً فشيئاً حتى صارت علوما مدونة ومبوبة لكل واحد منها اسمه الخاص به واستقلاله المنفرد به في موضوعه ومسائله وطريقة البحث فيه. وللمعلم الأول يرجع الفضل الكبير في ذلك. هذا ولا جدال في أن الفلسفة اليونانية ـ وهي ينبوع فياض قد اتصلت به كل الامم المفكرة واغترفت منه ـ كانت الحلقة الاولى في التاريخ الفلسفي التي نشأت عنها كل علاقاته الحكمة الاتصال

ثم ان جميع العلوم الانسانية علي اتساعها الآن يرجع، في أصل نشأتها، الي البذور العلمية الفلسفية الاولي التي نشأت في حجر الفلسفة اليونانية. هذا ومايزال الذوق الادبي الحاكم في الناس حتى الآن يستمد روحه الاقوى من الذوق الادبي اليوناني الذي انبعثت عنه الفلسفة اليونانية

فلسفة سقراط

عند الفلاسفة المتأخرين أمثال تسلر وبترو أن سقراط يعد المؤسس الحقيقي لعلم الاخلاق الذي مهد له من سبقه من الشعراء والحكماء والفلاسفة بعبارات قوية وتعبيرات دقيقة استمدوها من تجاربهم في الحياة. وفي سبيل الرد على اعتراضات السوفسطائيين وإعداد العقائد والتقاليد، اضطر سقراط

إلى تكوين علم غايته إرضاء مطالب العقل والعقائد القديمة وموضوع هذا العلم « تحديد الماهيات » أو قل إنه تكوين آراء عامة تحصل من الاستقراء وذلك بانتقاله من الجزئيات إلي الطبائع العامة أو الماهيات الكلية التي يعدها سقراط موضوع العلم والمعاني العملية والمسائل الأنسانية فكان في أفعاله وفي حياته الاخلاقية هو موضوع تفكيره ، يقول اكسانوفون : إن سقراط كان يرمي إلي تحديد ماهية جميع الموجودات . لقد عرف سقراط العدالة بأنها قوانين ثابتة ، والتقوى بأنها تقديم ما للآلهة من الاحترام إليها غير أن هذا التعريف لايحمل طابعاً عامياً. لقد كانت المحاورات المعروفة بالسقراطية هي التي تؤرخ شباب أفلاطون وتمتاز بخلوها من أي أثر لنظرية المثل فهي تبين أن الفيلسوف يناقش في دقة بعض التعاريف ، ولكنه لايخرج منها بنتيجة مطلقاً فان لاشيز يفرض بعض التعاريف عن الشجاعة، ولكنه يرفضها كلها . وهذا ما نراه كذلك في هيبياس الاصغر في بعض التعاريف الخاصة بالجمال . وفي الجملة كانت جميع هذه المحاولات نقدية وحسب . بل إن بروتاغوراس يترك كذلك بعض المسائل معلقة . بل إن في تيتاوس حيث يتجاوز أفلاطون آراء أستاذه نري النتيجة سالبة دائماً . هذا ولم يذكر أرسطو أمثلة لتعاريف وضعها سقراط ، مع أنه يذكر أن سقراط حاول أن يضع تعاريف عامة إلا أنه لا يذكر هل وفق سقراط في ذلك أم لم يوفق . وعلى الخصوص لم يظهر لنا كيف وفق في ذلك . ويبدو من كل هذا أنه إذا كان سقراط قد أدرك ما يجب أن يكون علية العلم ، إلا أنه لم يوفق في تحقيق الفكرة التي وضعها له ، فحدد موضوع العلم تحديداً تاماً ولم يستطع تحديد مضمونه . ويبدو أن سقراط نفسه كان يشعر بعدم قدرته علي تحقيق العلم كما كان يدركه . إذ أنه بحث عن السبب الذي دعا كاهنه دلف الى القول بانه أعلم الناس ، فادرك أنه أكثر من غيره علماً ، غير أنه ظهر أسمى وأقدر منهم جميعاً في أنه لايدعي علم ما يجهله . وكثيراً ما كان يردد سقراط أن أحسن

ما يعلمه هو أنه لا يعلم شيئاً . ويذكر في تيتاوس فى كلماته الخاصة بانه غير كفء لتوليد أية معرفة (تيتاوس ١٥٩٧) . وطبقاً للتعريف المشهور للتوليد المذكور فى هذه المحاورة يبين منهج سقراط من بحث أفكار غيره أي التعاريف التى يذكرونها ، لا أن يضع هو أفكاراً وتعاريف . ويقول سقراط إن كل ما يعمله هو ايقاع غيره في الشك والتناقض . وفي المحاورات المختلفة يرفض أن يضع هو نفسه أي مذهب ، واكتفى بنقد مذاهب سواه . وكان يرفض دائماً الخضوع الي مراحل السؤال التى كان هو نفسه يخضع لها محدثيه . ويقول أرسطو إن سقراط كان يسأل ولكنه لم يكن يجيب

السوفسطائيون

كلمة يونانية الأصل ومعناها حكيم أو مفكر . ولكن الناس يطلقونها على من يكابر ويغالط في نقاشه وفي اليونان (٤٥٠ — ٤٠٠ ق . م) ظهر جماعة من الفلاسفة أطلق عليهم اسم السوفسطائيين أي الحكماء . وكانت مهمتهم أن ينبثوا فى أرجاء اليونان ليعلموا الشبان الحكمة ، وينبهوهم الي الحرية . وقد أداهم البحث في تعليم الشبان وتثقيفهم إلى البحث فى أصول الاخلاق ، وقواعد الدين ، فجاءوا فيها بآراء جديدة تركت أثراً ظاهراً فى تاريخ الفسلفة . وثار عليهم لهذا كثير من الفلاسفة ، منهم افلاطون الذي انتقد آراءهم انتقاداً شديداً .

وكان خصومهم يتهمونهم بالتلاعب بالالفاظ : فيلبسون الباطل ثوب الحق

الفلاسفة

نذكر هنا أسماء الفلاسفة الذين عرفهم التاريخ لانهم كانوا على رأس من بحثوا الحياة الاولى، موردين تاريخ أعمارهم :

قبل الميلاد

لوسبيبوس ٤٥٠ ، انا كساغوراس ٥٠٠ـ٤٢٨ ، السفسطائيون ٥٠٠ـ٤٥٠ بارمنيدس ٥٣٠ـ ٤٦٥ ، هيرقليطس ٥٥٠ـ٤٧٥ ، ديموقريطس ٤٦٠ـ٣٦٠ أمبيروفليس ٤٩٠ـ٤٣٠ ، سقراط ٤٦٩ـ٣٩٩ ـ زينو الالباني ٤٥٠، أريستبوس ٤٣٥ـ ٣٥٦ ، أفلاطون ٤٣٧ـ٣٤٧ ، أنتيثينيس ٤٤٠ ـ ٣٧٠ ، ديوجينس ٤١٢ ـ ٣٢٣ ، اريسطوطاليس ٣٨٤ ـ ٣٢٢ ، أبيقورس ٣٤٢ ـ ٢٧٠، زينون الكلبي ٣٣٠ـ٢٦٤ ، لوكريتوس ٩٥ ـ ٤٥

اللاهوت المسيحي بعد الميلاد

ايكناتوس ٥٠ـ١٢٥ ، مرقس أوريليوس ١٢١ـ ١٨٠ ، توما الاكويني ٢٢٥ ـ ٢٧٤ ، فرنسيس باكن ١٥٦١ ـ ١٦٢١ ، برونو ١٥٤٩ـ١٦٠٠ ، دي كارت ١٥٩٥ ـ ١٦٥٠ ، هوبس ١٥٨٨ـ١٦٧٩ ، لوك ١٦٣٢ ـ ١٧٠٤ ، سينيوزا ١٦٢٢ ـ ١٦٧٧ ، ليبنتز ١٦٢٦ ـ ١٧١٦ ، ڤولتير ١٦٩٤ ـ ١٧٧٨ ، باركلي ١٦٨٥ـ١٧٥٢ ، كنديلاك ١٧٤٥ـ ١٧٨٠ ، هيوم ١٧١١ ـ ١٧٧٦ ، كنت ١٧٢٥ ـ ١٨٠٤ ، كندورسي ١٧٤٥ـ١٧٩٤ ، فخت ١٧٦٢ـ١٨١٤ ، شيلنغ ١٧٧٥ـ١٨٥٤ ، أوغست كونت ١٧٩٨ـ ١٨٥٠ ، هيجل ١٧٧٠ـ ١٨٣٠ ، شوبنهور ١٧٨٨ـ ١٨٦٠ ، جون ستورات ميل ١٨٠٦ـ١٨٧٥ ، أرنست رينان ١٨٢٢ـ١٨٩٤ ، سبنسر ١٨٠٦ـ١٨٧٣ ، نيتشه ١٨٤٤ ـ ١٩٠٠ ، سنتايانا ١٨٦٣ ، راسيل ١٨٧٢ ، ديوي ١٨٥٩ ، وليم جيمس ١٨٤٢ ـ ١٩١٢ ، أويكن ١٨٤٦ ـ ١٩٢٦ ، كروس ١٨٦٦ ، برغسن ١٨٥٩